الإمام محمد قاسم النانوتوي وجهاده ضد التبشير المسيحي في الهند

إعداد وتقديم :

محمد خالد ابن حسين أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي البحث:

الحمد لله خالق الأرض والسماوات ومنزل الدين الحنيف ومحافظه وأزكى الصلوة وأطيب السلام على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تاريخنا حافل ملآن بأولئك الأفذاذ والنوابغ الذين خدموا العلم والدين وأدهشوا العالم كله ببدائع الأعمال وجلائل المآثر ، وتركوا وراءهم من روائع الآثار ما استفاد به الأجيال ولايزالون ، والحق أنهم كانوا بمثابة فصوص عقد الدهر وأكاليل رأس الزمان ، يباهي بهم التاريخ الإسلامي بل التاريخ الإنساني كله ، أثروا و أفادوا العالم برمته ، كانوا هداة رشد وخير ودعاة أمن وسلام ، ومهما يكن لن ينساهم التاريخ أبدا ، ولن تزال أسماءهم تتلألأ على سماء العلم والمعرفة ، لهم منن وأفضال أثقلت عواتق الإنسانية جمعاء ، ولا يسع الإنسانية الوفاء بحقوقهم حق الوفاء ، ولا يتولى جزاءهم إلا الله ، كفى برهاناً على خلود الإسلام وعلى أنه دين الله المختار الذي صُنع ليعيش إلى آخر الزمن وعلى خلود هذه الأمة وعلى أنها هي الأمة الأخيرة وجودُ هؤلاء المصلحين والمجاهدين ، والعباقرة والنوابغ والموهوبين والمؤيدين ، وقادة الإصلاح الموفقين الذين ظهروا ونبغوا في أحوال غير مساعدة ، وفي أجواء غير موافقة ، بل في أزمنة مظلمة حالكة ، وفي بيئات قاتلة فاتكة ، وإن لهؤلاء الرواد والدعاة المصلحين قائمة مشرقة مشرفة يتجمل بها تاريخ الإصلاح والدعوة ، ولايخلو منهم زمان ومكان.

في القرن التاسع عشر الميلادي طلع على أفق السماء كوكب ساري ، وأنجبت بلاد الهند جندياً باسلاً وبطلاً مغواراً تجددت به ذكريات القرون المتقدمة ، وببطولاته حصحص الحق وانكشف الغطاء ، وبكفاحه تزعزعت قصور الباطل حتى تهدمت ، وبمآثره تنورت صفحات التاريخ الإسلامي مشرقة بيضاء ، كان ذلك شخصية الإمام حجة الله بين الأنام الشيخ محمد قاسم بن أسد علي النانوتوي رئيس الطائفة المؤسسة لجامعة دار

العلوم ديوبند بالهند ، فمن الحقائق الناصعة أن تاريخ الإصلاح والدعوة في الهند لايتم بغيره ، كل من يطالع سيرته النقية ويتأمل في عناصر شخصيته الفريدة ويستعرض أعماله المجيدة بمنظار غير منظار العصبيات والطائفيات تنكشف عنه الغمة وينقشع الغبار ، ويجد أمامه جبلاً شاهقاً من العلم والعمل والأخلاق الفاضلة والقيم الرفيعة العليا ، وتبدو له قائمة الإنجازات مشحونة بالمآثر والبطولات ، مملوءة بروائع القصص للكفاح والنضال والتضحيات ، وحق لنا أن نقول إنه كان الإمام من أولئك الذين لايجود الزمان بمثلهم ، ولا سيما في القرون الأخيرة لانرى مثله إلا نادراً كما قال في مدحه الشيخ الكبير إمداد الله المهاجر المكي رحمه الله : " **بأن مثل قاسم لايُوجد إلا في العصر السالف** " . قام الإمام وتقدم وأثار حرباً عواناً على القوات المعادية للإسلام ولم يرها أكبر من أن تنخذل ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر ، ومحا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة ، وقام بردود شديدة نكراء على الفرق الباطلة والديانات الضالة والشبهات التي أثيرت حول الإسلام ، ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن ما يكسر همة الرجل فلم تنكسر همته ولم تفتر عزيمته ، تصرف في العقائد الباطلة والعادات الجاهلية والخرافات باسم الدين تصرف الحاكم القدير ، ورفع الستار عن الدسائس ، ونذر بحياته في الذب عن حوزة الإسلام والدفاع عن حماه ، أتدري ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها وتسبق الصاعقة في انقضاضها ، ما كان له سلاح غير إيمانه القويم ولسانه الرصين وقلمه السلسال الخصيب ، كان كثير التعمق والغوص والتغلغل في حقائق الأشياء ، كان رقيق القلب محباً للعدل متعطشاً إليه ، فلنوجه وجهتنا إلى تلك الروح العالية إلى تلك الحياة العظيمة ، فإنه بعد مرور أكثر من قرن على حياته لم يزل في الأحياء الخالدين.

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفري

فهذا من سعادتي وحسن حظي أنني وفقت لهذا العمل المبارك بأن يكون لي سهم في ترويج ونشر معارف الإمام العظيم وتقديم حياة هذه الشخصية الفذة الفريدة بلغة الضاد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فالمجالات التي برز فيها الإمام النانوتوي وقام فيها بأعمال جليلة هي عديدة ومتنوعة أربت على العشرات يُحتاج في استيعابها واسقصائها إلى مجلدات ضخمة ، فحاولتُ في هذا البحث إلقاء الأضواء على حياته ومآثره وخدماته العلمية والإصلاحية إجمالاً ، ولكني قصدت أن اتحدث خاصة في هذا العرض الموجز عن بطولاته

وكفاحه ضد المسيحية ومواقفه المشهودة مع الأساقفة والقسيسين ودعاة التبشير المسيحي ، فقد بذلت لإعداد هذا البحث المتواضع كل الجهد وسعيت في تحسينه وتنميقه بكل ما وسعتني الطاقة ووصل إليّ الإمكان مستسهلاً كل صعب ومستصغراً كل خطب ، فإن أصبت الغاية فذلك فضل الله علي وكرمه ، وإن أخطأت فبتقصيري – استغفر الله – وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مولده ، نشأته وطلبه للعلم :

ولد الإمام محمد قاسم النانوتوي بن أسد علي الصديقي في شهر شعبان أو رمضان عام 1248 ه الموافق شهر يناير عام 1833م ، وكانت أمه ابنة الشيخ وجيه الدين المحامي الشهير بسهارنفور الذي كان يمارس المحاماة هنا في عهد الإنجليز ، وكان تبوّؤ هذه المكانة يعدّ مفخرة في أقرانه ، ومن أسمى ما يرام في ذلك العصر ، كان الشيخ النانوتوي ذكيا فطنًا نابهًا بين أقرانه في التعليم والدراسة منذ صباه ، تلمذ على مجموعة من أفاضل عصره ، أما شيخه الذي لازمه سنين طويلة ، واستفاد من علمه ، وقرأ عليه معظم الكتب الدراسية , فهو الشيخ مملوك العلي النانوتوي الذي كان من أجل علماء عصره وأشهرهم ، وأستاذًا في الكلية العربية بدهلي ، استمر الإمام في طلب العلم حتى منح الشهادة العلمية عام 1264ه أو 1265ه ، ومن أساتذته الذين درس عليهم العالم الشهير والأديب الأريب صدر الصدور المفتي صدر الدين تلميذ المحدث الكبير سراج الهند الشيخ الشاه عبد العزيز الدهلوي ، وبعد إكمال دراسته في الكلية بدأ قراءة الحديث على المحدث الهندي الشهير الشاه عبد الغني بن أبي سعيد المجددي الدهلوي ، وكان من سلالة الإمام الرباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، أخذ عنه الكتب الستة إلا سنن أبي داؤد ، فقد قرأها على الشيخ أحمد علي السهارنفوري تلميذ الشاه محمد إسحاق الدهلوي.(1) ومن رفاقه في الدراسة العالم الجهبذ والمحدث المعروف الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، والأستاذ سر سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره الإسلامية – فيما يقال – وأخذ الطريقة عن الشيخ الحاج إمداد الله العمري التهانوي المهاجر المكي ، وبايع على يده ثم نال منه الإجازة في البيعة والإرشاد والتلقين ، وكان ممن ذاع صيتهم في الخافقين من مشايخ الهند ، واستفاد منهم خلق كثير.(2)

سعة أفقه ودقة نظره :

ولا يعني هذا أنه كان يخالف التعليم الحديث وتحصيل العلماء إياه ، فقد قال الإمام النانوتوي في التاسع من يناير عام 1874م ، وهو يخاطب جلسة عامة عقدت دار العلوم في رحابها : " لو يواصل طالب من دار العلوم دراسته

بعد تخرجه في مقرراتها الدراسية ويتلقى العلوم الحديثة في المدارس الرسمية ، ويشبع نهمه العلمي ، فيزداد بذلك نبوغًا وكمالاً " كان تفكيره ثوريًّا ، كان مبتعدًا كل الابتعاد وعن أدنى شائبة من ضيق الأفق في شأن التعليم ، فقد أُدخلت مرة في مقررات دار العلوم اللغة السنسكريتية التي هي لغة مصادر دينية للهند ، ويجدر بالذكر هنا ما حدث مع النانوتوي في آخر سفرته للحج ، فتكلم قبطان باخرته معه بواسطة ترجمان ، وتأثر بحواره تأثرًا كبيرًا يكاد يدخل في الإسلام ، ولكنه وعد بلقياه إياه فيما بعد ، فكان من انطباعات الإمام أن المحادثة المباشرة تفعل ما لا تفعل المحادثة بالترجمان ، فعزم على أنه يتعلم هذه اللغة بعد الرجوع إلى الهند لو رافقته الحياة ، ولكن الأسف أنه لما وصل إلى الهند استأثرت به رحمة الله .(3)

ومما يؤيد هذه الفكرة أن تلميذه المرموق بين أقرانه الشيخ محمود حسن الديوبندي " شيخ الهند وقائد الحرية " قال في خطبته بمدينة عليكره ، وكان يوضح أهداف إنشاء الجامعة الملية الإسلامية في التاسع وعشرين من أكتوبر عام 1920م :

" يا أفلاذ أكباد الوطن ! لما رأيت أن الذين يواسونني في آلامي وأحزاني – وهي التي أنقضت ظهري وأوهنت عظمي – أكثرهم يتصلون بالمدارس والكليات العصرية ، وأقلهم في المعاهد الدينية والزوايا ؛ تقدمت أنا ورفاقي إلى عليكره ، وأوثقنا الصلة بين ديوبند وعليكره بقعتين تاريخيتين "

فلا غرو إذن أن نقول بكل جد وثقة أن الإمام النانوتوي لم يكن يعتبر اللغة الإنجليزية أو العلوم العصرية شجرة ملعونة لا مساس لها بالعلماء والمتدينين ؛ بل إنه رتب مقرر دار العلوم التعليمي نظرًا إلى ضرورة عصره ، وكان من الطبيعي في ذاك الوقت أن يكون للعربية والفارسية نصيب كبير ، وهكذا كان .(4)

خدماته العلمية الرائعة :

التدريس:

إنه كان يلقي محاضرات حول بعض المواد الدراسية في زمن طلبه بأمر من شيخه وأستاذه ، ولما تخرّج في العلوم الشرعية بدأ يعمل على تصحيح الكتب وتحقيقها بمقابلتها بأصولها ونسخها المختلفة ، بجانب تدريسه أمهات كتب الحديث متطوعًا حسبةً لله ، حفاظًا على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما دروسه في الصحيحين للإمامين محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري كانت مقبولةً جدًا ، فقد حضرها كبار العلماء والمشايخ ، كما

كان له أكبر نصيب في تدريس غيره من العلوم والفنون ، وكان الشيخ محمود الشيخ محمود حسن الديوبندي – أستاذ الأساتذة وشيخ مشايخ الهند الملقب بـ " شيخ الهند " – من تلاميذه ، وقد قيض الله تعالى له غيره من تلاميذ أذكياء أمثال الشيخ فخر الحسن الكنكوهي ، والشيخ المحدث أحمد حسن الأمروهوي ، والشيخ الطبيب منصور علي خان ، والشيخ عبد العلي الميرتهي وغيرهم من أجلة العلماء – الذين لهم قدم صدق في التأليف والتصنيف ، والبحث والتحقيق ، ومكانة مرموقة بين علماء الهند – فهؤلاء كلهم ارتشفوا من منهل علمه العذب وفضله الفياض ، وتربوا على يديه وصُنعوا على عينيه ، وترسموا خطواته .(5)

الكتابة والتأليف :

وأما الجهة الثانية من خدماته العلمية ، فهي الكتابة والتأليف ، وإن لم تسنح له فرصة كبيرة للاعتناء بهذا الجانب ؛ لأن حياته كانت حافلة بالجهاد والتضحية والبذل والعطاء ، والنشاط الواسع في المجال الدعوي ، ومع ذلك لا يستهان بقيمة ما قدمه من الخدمات العلمية للإسلام والمسلمين ، وإنما هي جديرة بأن تُكتب بمداد من النور والذهب .

وكانت معظم كتاباته في الدفاع عن الإسلام والرد على شبهات أثيرت حول الإسلام من النصارى والهندوس وتفنيد أباطيلهم وترهاتهم ،

وفيما يلي تعريف موجز بمؤلفاته :

حجة الإسلام : هذا الكتاب يبحث في مقصود تخليق الإنسان ، وتوحيد الألوهية والربوبية ، والبعثة المحمدية ، ودحض عقيدة التثليث ، وإبطال الأقانيم الثلاثة وتأليه المسيح ، وفناء الدنيا ، واستقبال القبلة ، وأسرار الركوع والسجود في الصلاة ، وحكم الزكاة والصيام والحج ، وعصمة الأنبياء ، وحقيقة المعجزات ، وبلاغة القرآن الكريم ، وعقيدة ختم النبوة ، وحقيقة الناسخ والمنسوخ ، وتفضيل سيد الأبرار خاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ، وتطابق أكل اللحوم مع الطبيعة الإنسانية ، وما إلى ذلك من قضايا رئيسية ومهمة ، وكتب كل ذلك مدعمًا بالدلائل وبأسلوب حكيم ، وقد كتبت هذه المقالات المختلفة في الأصل لاجتماع كبير سمي بـ " معرض معرفة الإله " عقد بـ " شاهجهانفور " دعي إليه العلماء ورجال الدين من كل الأديان الموجودة في الهند آنذاك ، فحضروا ، وألقى كل واحد منهم كلماته حول حقانية دينه ، ولما قام الإمام النانوتوي ، وألقى حول ربوبية الله الواحد كلمات تاريخية

أفحمت جميع الممثلين للنصرانية والهندوسية ، فقطعت جهيزة قول كل خطيب ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون .

انتصار الإسلام : كتب الفيلسوف الهندوسي ديانند سرسوتي مؤسس فرقة من الهنادك وحركة تجديدية منها باسم "آريه سماج" كتابًا ضد الإسلام ، أورد فيه إحدى عشرة شبهة على الإسلام مما أثار ضجة في أنحاء البلاد ، فجاء هذا الكتاب بردود عنيفة وواضحة على هذه الشبهات الوهمية ، تحدث فيه المؤلف عن وجود الباري سبحانه وتعالى ، ووجود الشياطين والجن والملائكة ، والجنة والنار ، والمراد بخمر لذة للشاربين يشربها أهل الجنة في الجنة ، وحقيقة النسخ في الأحكام الإلهية وحكمتها ، وأولوية تدفين الموتى بدلاً من إحراقهم ، ووجود الروح وعالم البرزخ ، وحِكم حرمة الحيوانات أو حلّها ، وعدم كون غفران الذنوب بالتوبة مخالفًا للإنصاف وما إلى ذلك من قضايا عقدية منوعة ، وأوضح كل ذلك في ضوء العقل والطبيعة الإنسانية .

التحفة اللحمية : يعتقد الهنادك والجينيون في الهند أن ذبح الحيوان وأكل لحومه ظلم وغير مستحسن عند العقل ، وخلاف مقتضى الروح ، رد الشيخ في هذا الكتاب على هذه العقيدة الزائفة من ناحية عقلية وطبيعية ، وأثبت أن أكل لحوم الحيوان من طبيعة الإنسان .

البراهين القاسمية : جاء هذا الكتاب في الرد على شبهات فرقة " آريه سماج " يتضمن إثبات وجود الباري جل ثناؤه , وصفاته – نحو العليم والواحد وغيرهما – ونفي كون المادة قديمة ، وكون القرآن الكريم كلام الله ، وحيثية الأنبياء وختم النبوة بنوة خاتم الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وما إلى ذلك من المباحث الكلامية ، تناول كل ذلك بأسلوب علمي دقيق ، وترتيب منطقي سليم , واستنتاج عقلي متين ، والاسم الأصلي لهذا الكتاب " جواب تركي به تركي " الذي يعني " الجواب الواضح والمباشر " .

قبله نما (الموجه إلى القبلة) : كان من شبهات ديانند سرسوتي أن المسلمين يسمون الهنادك بعبّاد الأصنام ، وهم أنفسهم يسجدون لبيت من حجر ومدر ، يعني بها الكعبة البيت الحرام ، فرد الشيخ في هذا الكتاب على هذه الشبهة ، وبيّن الفروق الجوهرية بين عبادة الأصنام واستقبال القبلة من ناحية عقلية .

تقرير دلبذير : (الخطاب الآسر للقلب) هذا الكتاب من أهم تأليفاته ، وكُتب من وجهة النظر الدعوية ، والمباحث التي سلَط الضوء عليها في هذا الكتاب هي كما يلي : وجود الباري ، كون عقيدة التثليث وعبادة الأصنام مخالفةً

للعقل والطبيعة ، الإنجيل المحرف , فناء الدنيا ، وجود الجنة والنار والملائكة والشياطين ، خالق أفعال العباد هو الله ، مسألة القدر ، أسباب وقوع النسخ في الشرائع السماوية ، وحقيقة الحسن والقبح في الأعمال ، الصفات الإلهية ، إمكان قيام الساعة ، وما إلى ذلك من المباحث العقائدية .

آب حيات (ماء الحياة) : من شبهات الشيعة القديمة أن الشيخين رضي الله تعالى عنهما ظلما فاطمة الزهراء سيدة النساء ، واعتديا عليها إذ لم يورثاها أرض تبوك ، وهذا الكتاب في الأصل رد على هذه الشبهة ، ووجهة نظره في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال حيًّا في قبره ، ولا يجري الإرث في أموال الأحياء ، ولذلك لا يورث مال من أموال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

توثيق الكلام : كان بعض الناس يقولون إن صلاة من لا يقرأ الفاتحة خلف الإمام فاسدة ، فأتى الشيخ في هذا الكتاب بدلائل وبراهين من الكتاب والسنة مع شواهد عقلية ، ورجح رأي الحنفية بوضوح ، ولكن بتوسط واعتدال .

مكاتيب ورسائل : طبع من مكاتيبه حتى الآن تسع مجموعات ، وفيما يلي أسماؤها :

1- المكاتيب القاسمية
2- الفيوض القاسمية
3- اللطائف القاسمية
4- جمال القاسمي
5- الحق الصريح
6- تحذير الناس
7- أسرار القرآن
8- الفرائد القاسمية
9- تصفية العقائد

وقد اعتنى بها تلاميذه وأتباعه وقاموا بترتيبها ، وقد رد في هذه المكاتيب والرسائل على الشيعة ، والمبتدعة الغالين ، والعقلانيين ، ودحض أكاذيبهم ومفترياتهم ، وفي بعضها ردود على فرقة ترى أن الصلاة تفسد بدون قراء ة الفاتحة خلف الإمام ، وأن عشرين ركعة من التراويح لم تثبت بحديث مّا .

وقصارى القول أن الموضوع الرئيسي لكتاباته هو " علم الكلام " ، ومقاومة الغزو الفكري على الإسلام ، وحاول محاولة مشكورة في تفهيم العقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية في ضوء العقل والمصلحة ، وحقق في ذلك نجاحًا كبيرًا .(6)

تأسيس الجامعة الإسلامية دار العلوم / ديوبند :

في الأوضاع الحرجة والظروف القاسية شعر الإمام محمد قاسم النانوتوي أن سلطة المسلمين قد أفل نجمها وغربت شمسها في هذه البلاد ، يخشى عليهم – ولا قدر الله – أن يحرموا رصيدهم الإيماني , وتنقطع صلة هذه البقعة من النبي العربي صلى الله عليه وسلم ، فقام بتأسيس الجامعة الإسلامية دار العلوم / ديوبند برفاقه وأصحابه ، ولم يكن الغرض المنشود من تأسيس هذه القلعة الإسلامية إنشاء مؤسسة أو مدرسة فحسب ، وإنما كان أجلّ من ذلك وأعظم ، وهو الحفاظ على الإسلام والدفاع عن حياض الشريعة الغراء ، ولما كان من المصلحة أن يكون ذلك في خفاء من أنظار الحكومة , وضع حجرها الأساسي في بلدة " ديوبند " تبعد مائتين كم تقريبًا من دهلي بدلاً من دهلي عاصمة الهند ، وممن ساعده في إنشاء هذا المعهد العلمي الذي يستحق أن يسمى " أزهر الهند " الحاج سيد محمد عابد ، والشيخ ذو الفقار علي الديوبندي ، والشيخ فضل الرحمن العثماني وغيرهم ، إنه افتتحه في يوم الخميس الخامس عشر من محرم الحرام عام 1283 ه الموافق 30/ مايو 1866م بفناء مسجد يسمى " مسجد تشته " في ظلال شجرة الرمّان ، وتحت السقف المحفوظ من السماء ، وما كان لديه دينار ولا قنطار ، ولكن كان يحدوه الأمل ، والثقة بالله ، والشوق إلى إعلاء كلمته ، والتفاني في سبيله ، عين فيه أستاذ ، وأُدخله طالب ، وكان اسم كليهما " محمود " وهذا هو محمود الطالب الذي لقب فيما بعد ب " شيخ الهند " وقاد كفاح التحرير ، ولما أخبر الشيخ الحاج إمداد الله المهاجر المكي القائد الروحي للإمام النانوتوي – وكان نزيل مكة المكرمة آنذاك – بتأسيس هذه المدرسة قال :

" سبحان الله ! تزعم أنك أسست مدرسة ، ولا تدري كم من جباه سجدت وعيون بكت بالأسحار ، ودعت تحت جنح الظلام أن هيئ اللّهم وسيلة بقاء الإسلام والحفاظ على العلم في الهند ، فالواقع أن المدرسة ثمرة هذه الأدعية والمناجاة " .(7)

فالذي يظن أنها مدرسة أقيمت بديوبند ، يدخلها الطلبة ويتخرجون ، وليس وراء ذلك غاية فإنه على خطأ ؛ بل إنها كانت حركة جليلة الشأن ، تهدف إنشاء مراكز إسلامية في شتى أنحاء البلاد ، تؤدي فريضة صيانة الإسلام في كل حين وآن ، ولا تتغافل عنها في حين من الأحيان ، وتمثل الإسلام في كل صغير وكبير ، وتوفر الموارد البشرية ؛ فقد قام الإمام بإنشاء مدرسة كبيرة في مراد آباد بعد ديوبند ، أسماها الناس بعد ب "الجامعة القاسمية " (مدرسة شاهي) بمسجد ملكي وأنشئت غيرها من المدارس والمعاهد الدينية بتهانه بهون ، وكلاوتهي بمديرية بلند شهر ، وكرانه بمديرية مظفرنجر ، ودان فور بمديرية بلند شهر وأمبيتهه ، وسهارنفور وميرتهـ وغيرها ، وفي تلك الأيام أنشئت بقرب ديوبند مدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور , ومدرسة " الباقيات الصالحات " بمدينة " ويلور " إحدى مدن جنوب الهند ، والحقيقة أن هذه وأمثالها من المدارس والمعاهد العلمية التي أسست في ذلك الحين كانت تستنير بالفكرة القاسمية .(8)

الإمام النانوتوي مجاهداً :

يندر نظير العلماء الذين يمتلكون ناصية العلم والبحث أن يكونوا فرساناً في ساحة المعركة ، ولكن الإمام النانوتوي قد جمع في شخصيته صفات متباينة في الظاهر ، فقد كان متكلم الإسلام وداعيةً كبيرًا إلى الدين الحنيف ، ومصلحًا لاعوجاج الأمة الإسلامية ، ومدرسًا للعلوم الإسلامية ، ومجاهدًا في سبيل الله ، وكان من وجهات نظره أن سيطرة الإنجليز على الهند ليست خطرًا على الوجود المادي لمسلمي الهند ؛ بل على بقاء هويتهم الدينية وشعائرهم الإسلامية ، فهيأ الجو للجهاد والكفاح ، ولما مست الحاجة إلى نصب الأمير ، وجعل الشيخ إمداد الله المهاجر المكي أميرًا على مشورته وعُين النانوتوي قائد القوّاد ، وكان فوج من القوات الإنجليزية مقيمًا بأقصى مدينة " شاملي " وصلت قافلة المجاهدين إليهم ، وقامت المعركة بينهما ، فنصر الله المسلمين ، ولكن الإنكليز احتلوا المنطقة مع أسلحة أقوى تأثيرًا من ذي قبل ؛ لأن البلاد كلها كانت بين براثن الإنجليز وسلطتهم ، وأصدر الأمر بإلقاء القبض على الإمام النانوتوي ، والقضاء عليه ، وكان من تقدير الناس أنه يحكم عليه بالإعدام والشنق ، وقد لجأ الإمام إلى الاختفاء في مكان محفوظ ، ومعه رفاقه ، وهاجر الحاج إمداد الله إلى مكة المكرمة ، وفي نهاية المطاف وبعد صراعٍ دام تسعة وعشرين شهرًا ، تسلمت بريطانية حكومة الهند مباشرة بيع وذلك في نوفمبر عام 1658م ، الموافق شهر ربيع الأول عام 1275هـ ، وأعلنت الملكة وِكتورية بهذه المناسبة بعفو عام ، **وهكذا تخلص الإمام من هذه الرزيئة** (**9**) .

جهوده الإصلاحية :

بينما قام الإمام النانوتوي بأداء فريضة الدفاع عن الإسلام ، وقاوم الغزو الفكري الذي رسمت خطوطها من أعداء الإسلام ، لم يتغافل أبدًا من العمل الدؤوب بين أوساط المسلمين ، ومن الدعوة والتذكير والتوجيه والإرشاد ، وكان جانب من جوانب هذه الخدمة أن كثيرًا من البدعات قد صارت جزءًا من الحياة الدينية للمسمين لأجل غلبة التشيع هنا ، ويوجد عدد كبير من الشيعة في " نانوته " أيضاً ، وكان قد تشيّع فرع من أسرة الإمام النانوتوي أيضاً ، وكان من نتيجة ذلك أن أهل السنة بدأوا يهتمون بـ" تعزيه " (ضريح مصنوع من القرطاس ونحوه) ويخرجون بها في أبهمة وشوكة ، وكانت هناك غرف خاصة في مساجد أهل السنة لوضع هذه الضرائح وتعقد المجالس لرثاء أهل البيت ، وتجعل محطات للسقاية تسمى بـ" سبيل " باسم سيدنا حسين رضي الله تعالى عنه ، كانت هذه الظاهرة عامة في سائر أنحاء الهند تقريبًا من دون فرق بين أهل السنة والشيعة ، وتوجد بقاياها حتى الآن عند بعض الجهال من العوام ، والإمام النانوتوي رفع رأية الجهاد ضد هذا التأثير الشيعي ، ومنع الناس عن اتباع هذا البدعات ، وتحمل لذلك مخالفة الجماهير ، ولكن أهل السنة بدأوا يتعدون عنها شيئاً فشيئاً ، وهذا من انتصاراته الباهرة في هذا المجال.

وفي الوقت نفسه ، كان بعض المبتدعة الغالين يعتقدون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
عالم الغيب ، وهو حاضر في كل مكان , عليم بكل شيء ، وأنه يرافق المشايخ والأولياء ، فكتب ردًّا على ذلك ، وسلط الضوء على هذه القضية بإسهاب ممتع في إحدى رسائله ، كما رد على ما كان سائدًا وقتئذٍ من النذر بغير الله ، فرفع صوته ضد هذه العقيدة .

وأما الجهة الثالثة من جهوده الإصلاحية فهي أنه حاول في إنقاذ المسلمين من الرذائل والمثالب الاجتماعية التي نشأت في حياة المسلمين لطول بقائهم مع غير المسلمين ، ومن ذلك قضية " زواج الأرامل " فلم يكن هناك مساغ للنكاح الثاني لأرملة ، وتعتبر مشؤومة نحسة ، وقد تأثر المسلمون بهذا التصور ، فقد تولى الإمام سيد أحمد الشهيد – رحمه الله – في عهده حملة عامة ضد هذا ، ثم تبعه بعض العلماء في ذلك ، ولكن لم يتحقق لهم نجاح في القضاء على هذه التقاليد كما ينبغي ، وقام الإمام النانوتوي لقمع هذه العادة السيئة من المجتمع مع العلماء والمشايخ على مستوى رفيع ، واتخذ خطوات عملية في هذا الصدد ، وزوج خالته التي كانت أرملة لتقديم نموذج عملي لذلك ، وقد رزقت من زوجها , فلما بلغ أبناؤها مبلغ الرجال وشاءت أن تخطب لهم , فلم يستعد أحد لربط الصلة الزواجية بهم ، حتى زوج الإمام بنته بأحدهم ، وهكذا مثل دورًا هامًا في إنقاذ المسلمين من هذه اللعنة .(10)

نذكر فيما يلي عدة جهوده الإصلاحية :

رده على الهنادك

رده على الشيعة

رده على المبتدعة

رده على المسيحية (سنتحدث عن ذلك بشيئ من التفصيل)

مؤامرة داهمة وراء الستار :

ولما بدد الانكليز قوة المسلمين وأقضوا مضاجعهم في الهند ، وضعوا لصون سياستهم وتوطيد دعائمهم خططاً بييت بغاية من الدهاء والخداع ، ونُسجت خيوطها بمنتهى الاحتيال والشطارة ، واختاروا لذلك من جميع الفنون والأساليب ما يفيدهم في مسيرتهم وتلائم مختلف الظروف والمناسبات ليكون المسيحيون الركن الأساسي للمجتمع الهندي ، وكان من مشروعاتهم الماكرة إقامة المدارس والمستشفيات التبشيرية لتكون مراكز للتبشير المسيحي وتنصير الشعوب الهندية ، فأقاموا تلك المدارس والمستشفيات في شتى زوايا البلاد كحبائل وأشراك قد وقع فيها من السذج

والبسطاء عدد غير قليل من أهالي البلاد ، وكذلك كانوا يراوغون طبقات الفقراء والمعوزين باستهوائهم بالمساعدات الاقتصادية والمعونات المادية ، وهذا سهمٌ لايُخطئ عن مرماه.

ثم بعد ذلك التجأوا لتكثيف جهودهم وتنمية ممارساتهم في هذا المضمار إلى المناقشات والمناظرات الدينية ، فالديانات التي لم تكن إلا مجموعة من الأباطيل والأساطير قد ذابت وتحللت أمام هذا التيار الجارف وأصبحت غثاء كغثاء السيل ، ومن الحقيقة أن الهنادك كانوا دائماً مستعدين للانخداع والجري وراء الأوهام ، ولكن الدين الوحيد الذي تصدى لهذه العواصف الهوجاء وقاوم كل هذه الموجات والأعاصير بأقصى قوة وصمود ، وقام على وجهها كالبنيان المرصوص هو الإسلام ، وكلما تهدد كيانُه بمثل هذه الهجمات ردها على أعقابها وكسر طلسمها وخيب آمال المسيحيين المبطلين.

ينشأ هنا سؤال يثير عجباً وهو أن هؤلاء المسيحيين كيف تجرأوا على ذلك بعد ما لم يزالوا ينهزمون من أسرة ولي الله الدهلوي ويقاسون ألم الهزائم والانكسارات في المعارك مع الشيخ رحمة الله الكيرانوي ، ويتجرعون كأس الذل و المهانة في سبيل الاصطدام بعلماء الإسلام مرات و كرات ؟؟؟ فمن ذا الذي يعرف حقيقة تلك المناظرات وما وراءها من نوايا خبيثة ومؤامرات شيطانية لايقضي من ذلك عجباً أي عجب ، إنما لايستهدفون بالمناقشات والمناظرات إثبات الحق وإقناع الجماهير بقوة الاستدلال ، بل إنهم لايعبأون أصلاً بنتائج وعواقب تلك المناظرات ، ولكن مطلبهم الحقيقي والمقصد الأساسي هو الغش والخداع عن نتائج المناظرات بالدعايات الضالة المزيفة واختلاق الأخبار المموهة ، بأن عدد المشاركين والمتفرجين في المناظرات يكون قليلا جدا وإن يزداد فلا يتجاوز الألف أو الألفين ، ولكن الذين لم يشهدوها وما ألموا بما حدث فيها ، ولا يكون بهم علمٌ بمن ظلت كفته راجحة ، للمسلمين أو المسيحيين ؟ وعدد أولئك لايقل عن عشرات الملايين ، فهنالك تكون فرصة سانحة ومجال فسيح لبث المفتريات والشوائع عن الإسلام والمسلمين ونتائج المناظرات ومحتوياتها بين الشعوب الهندية المختلفة التي لم يبلغها عن حقيقة الأمر إلا ما يخترعه ويذيعه المسيحيون الافرنجيون من أحاديث منمقة وزخارف الأقوال ، فبهذه الاستراتيجية الداهنة سوف يتيسر لهم كبتُ الواقع وتمويهُ الحقيقة بأن القسيسين أفحمواعلماء المسلمين وهزموهم هزيمة مخزية ، فإن تنجح هذه الخطة ويتيقن بذلك مليون أو يزداد من أولئك الكثرة الكاثرة من سكان البلاد ويغترو بهذا الكيد الداهم فيتحقق هنالك للبشير انتصارٌ لايعادله انتصارٌ ، ثم تتصاعد حركة الجهود والنشاطات بسرعة كهربائية على قدم وساق ، وإلى كل ذلك إذا كان على اعتناق المسيحية إغراءاتٌ ماديةٌ وأحلامٌ معسولةٌ لترف الحياة ورغادة المعاش هرول إذن كلُ من هب ودب إلى المسيحية هرولة مذهولة متخبطة حتى تعم المسيحيةُ البلاد بأجمعها وتسود جوانبها بأكملها ، وتترفرف رايتها خفاقة عالية في الهند شبراً شبراً ،

هذا هو مقصدهم الأساسي وغايتهم المنشودة من المناظرات ، يدل على ذلك الأحداث والوقائع دلالة ظاهرة وباطنة.(11)

الإنجليز يريدون تنصير الهنود :

حينما قوي احتلال الإنجليز في الهند وترفرفت راية السلطة البريطانية على دهلي سنة 1857م ، لم يجدوا سبيلاً إلى إزعاج المسلمين إلا وقد أتوه ، حتى آل الأمر إلى أنهم حاولوا مساومة المسلمين على إيمانهم علنًا وجهارًا ، بل كانت هذه الخطة مرسومة في أذهان أرباب السلطة البريطانية ، واستولت على أفكارهم وامتزجت بلحمهم ودمهم ، ذكر المفكر المسلم الهندي الشهير " سر سيد أحمد خان " – وكان ممن له صلة وطيدة بالإنجليز – عن رسالة صدرت من كولكاتا من قبل الأسقف المسيحي إلى إيدمند عام 1855م ، وأرسلت إلى جميع الموظفين في الحكومة ، ومن محتوياتها ما يلي :

"توحدت الحكومة في سائر أنحاء الهند ، واتفقت الأنباء بواسطة البرقيات في كل مكان ، فليتوحد الدين والنظام أيضا ، وينبغي أن تكونوا على دين واحد وهو المسيحية "

وقد قال سر جارلس– وكان من أهم أعضاء المجلس الأعلى للهند آنذاك – :

" كنت مؤملا أن أهل الهند يدخلون في الدين المسيحي على بكرة أبيهم ، كما دخل فيه أصحابنا قاطبة بالأمس دفعة واحدة (12)."

وقال المستر مينكلس أحد أعضاء البرلمان البريطاني في سنة 1857م , وكان يخاطب دار العوام :

" ينبغي أن يسعى كل شخص جاهدًا ويصرف همته وعزيمته في تنصير الهند بأسرها ، وإنه لجهد لو تعلمون عظيم " (13).

وكان المسلمون هم العقبة الكؤود عندهم في عملية تنصير الهنود ، والقرآن الكريم هو العرقلة الكبيرة في دعوة المسلمين إلى النصرانية ، كما يظهر من بيان هنري طامس ، فهو يقول :

" لا يمكن أبدًا أن يكون المسلمون شعبًا صالحًا لحكومة لا تدين بدينهم ، فلا يمكن تنصير المسلمين وفيهم كتاب الله " .(14)

وليس هذا مجرد كلمة خرجت مِن في هنري طامس فجأة ، ولا هي كلمة هو قائلها وحده ؛ وإنما قالها كيد إستون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق قبله ، فقد قال – وكانت يده النجسة تمس القرآن – :

"إن الدنيا لا تكون متحضرة ما دام هذا الكتاب باقيًا في الدنيا" .

والحاصل أن الإنجليز كانوا يريدون أن يتفرنج أهل الهند جميعًا من حيث القوم ، ويتوخون إعادة تاريخ الأندلس في هذه البلاد ، فكانت الحكومة تستعين في ذلك بإطماعهم في الوظائف والأموال ، وفي جانب آخر ، كان المبشرون المسيحيون يدعونهم إلى الردة في كل بلدة وقرية ، فلم يخضع العوام لهذه الدعوة فحسب ، بل أصبح بعض المسلمين المثقفين – وكانوا طامعين في حطام الدنيا ، ضعاف العقيدة والإيمان – عرضةً لهذه الدعوة ؛ بل وأصبحوا قسيسين رهبانًا ، ومبشرين ودعاة إلى غير الله ، اتباعاً لأهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرًا ، وضلوا عن سواء السبيل . (15)

جهود الإمام في هذا الميدان :

وقف الإمام محمد قاسم النانوتوي في وجه هذه الفتنة سدًا منيعًا ، ووصد دونها الأبواب ، إنه تكلم في تأليفاته عن عقيدة التثليث ، والأقانيم الثلاثة ، وعقيدة الكفارة ، ودعوى النصارى أن المسيح ابن الله وأن الكتاب المقدس قد وقع فيه التحريف ، وذكر إيضاحات العهدين الجديد والقديم في هذا الصدد ، كما أثبت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم و فضيلته على سائر الأنبياء وما إلى ذلك مستدلاً بالكتاب المقدس ، والعقل والفطرة الإنسانية ، وأتى بدقائق علمية ، قلّما توجد في غيرها .

ولما كان الشيخ مقيما بمدينة << ميروت >> بلغه أن الأساقفة انتشروا في مدينة دهلي يلقون خطباً عن ديانتهم أمام الناس ويضلونهم ، فأمر الشيخ تلاميذه بأن يذهبوا إلى دهلي ويلقوا خطباً كذلك ، ويساعدوا من يحاور الأساقفة من علماء المسلمين حتى تواعد الأساقفة وعلماء المسلمين على المناظرة وضربوا الموعد ، فذهب الشيخ بنفسه وناظر الأسقف تاراجند وأبكمه وأخرسه بدلائل قوية رصينة ، حتى لاذ الأسقف ذلك بالفرار. (16)

معرض معرفة الإله :

وعلى مستوى الجماهير تعقب أساقفة النصارى في كل مكان لمقاومة هذه الفتنة على أوسع نطاق وأبعد مدى ، ورد على تساؤلاتهم ردًّا دامغًا ، فأفحمهم ولم يجدوا جوابًا ، حتى اعترفوا بأخطائهم وزلاتهم ، أو ولوا من ميدان المناظرة مدبرين ، وخسروا في مضمار الرهان ، وفي عام 1876م حرض الأسقف البريطاني " نولس " المنشئ بياري لال كبير رئيس بلدة تشاند فور بمديرية شاهجهانفور على عقد اجتماع كبير فسح فيه المجال للهنادك والنصارى والمسلمين أن يثبتوا صدق دياناتهم ، وسمي هذا الاجتماع بـ " ميله خدا شناسي " (معرض معرفة الإله) حضره الإمام محمد قاسم النانوتوي وتلاميذه والشيخ أبو المنصور الدهلوي بصفتهم ممثلين للمسلمين ، ومن قبل النصارى اشترك فيه الأسقف إسكارت ، والأسقف باكر والأسقف محي الدين ، كما حضره الفيلسوف الهندوسي ديانند سرسوتي ، والمنشئ بياري لال ، والكاهن الهندوسي إندرمن وغيرهم من الهنادك ، وقد اجتمع بهذه المناسبة حشد كبير من جماهير

الديانات المختلفة ، واضطُر الممثلون المسيحيون إلى الاعتراف بالتحريف في الكتاب المقدس ، وأُفحموا عدة مرات أمام الجماهير في هذه المناقشات التي جرت ثلاثة أيام , حتى ولوا مدبرين قبل انتهاء الوقت ، وخرجوا أذلة صاغرين ، والأسقف البشاوري محي الدين – وكان يعتبر مناظرًا مسيحيًا طليق اللسان – تاب من المسيحية ، ودخل في حظيرة الإسلام مرة ثانية ، وعادت ثقته بالإسلام مما عرف من الحق .

عقد هذا المعرض أو الموسم الثقافي في السنة المقبلة في 19 و20 من مارس عام 1877م وألجأ الإمام النانوتوي بفصل خطابه وفضل إخلاصه الصديق والعدو على السواء إلى الاعتراف بانتصار الإسلام ، وكان لهذه المعارض الدينية صدى في سائر أنحاء الهند ، وكان انتصار الإسلام جليًّا واضحًا على أتباع الديانات الأخرى ، ولم يعد بإمكانهم أن ينكروا هذه الحقيقة ، وأعادت هذه الظاهرة إلى المسلمين الثقة بأنفسهم والاعتزاز بدينهم ، وطفق المبشرون والدعاة المسيحيون يفزعون من علماء المسلمين ، وترتعد فرائصهم وتقشعر جلودهم بأسماء هؤلاء .

وأما الفتنة الثانية التي كان المسلمون يواجهونها في ذلك الحين هي دعايات الهندوس ضد الإسلام وخاصة فرقة " آريه سماج " التي أنشأها ديانند سرسوتي ، الذي كتب كتابًا باسم " ستيه بركاش "، طبع في بنارس عام 1875م ، أفرد فيه بابًا لشبهات حول القرآن الكريم ، ولم يدع سورة من سور القرآن إلا وقد جاء فيها بتلبيسات وشبهات وهمية ، وكانت كلماته تضرم النار في الهند بكاملها ، زد إلى ذلك كتباً عدوانية للفاضل الهندوسي اندر مَن المراد آبادي الذي كان متضلعًا من الأردية والفارسية ، وكانت هناك مجلة باسم " آريه سماجار " (أنباء آريه) تصدر من قبل " آريه سماج " ، تدعو المسلمين إلى الردة ، وتستخدم أسلوبًا يسيء إلى الإسلام ورسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، في هذه الأوضاع الحرجة عقد " معرض معرفة الإله " في السادس من مايو عام 1876م ، حضره عدد لفيف من فرقتين كبيرتين للهنادك " آريه سماج " و " سناتَن دهرم " علاوة على النصارى ، ذاع صيت هذه المناظرة إلى كل حدب وصوب ، وذلك لأجل الهجوم العدواني على الإسلام ، تقدم الممثلون عن هذه الديانات وعرضوا أمام الناس أفكارهم وعقائدهم ، وطعنوا جميعاً على الإسلام وأحكامه والقرآن ، ونالوا من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاصة قام القسيسون وشنوا هجوماً شنيعاً على الإسلام ، وبذلوا جهداً جهيداً لإثبات حقانية المسيحية مستخدمين كل ما كان عندهم من دهاء ومكر وخبث ، وإقناع السامعين السذج بأن الإسلام والهندوسية لا يحملان أي رسالة وحقيقة ، ولايقومان على أساس ، ولكن الحقيقة أنهم لم يقدموا إلا ألغازاً وأباطيل وخرافات لا علاقة لها بالحقيقة أي علاقة ، ولما تعدوا كل الحدود وفرغوا من بيان مثالب ومبتذلات ، قام هنا الإمام النانوتوي ، وبين أولاً عن أسس الإسلام ووضح مكانته بدلائل مقنعة ، وتحدث عن الذات الإلهي ، والتوحيد ، واستحالة كون الإنسان الضعيف المحتاج إلها ، ورد على المسيحية والتثليث ببراهين لم يسعهم إنكارها ، حتى انتصر الإسلام على يده ، ولم يسع القسيسين ودعاة التبشير إلا أن لاذوا بالفرار ، وأصبحت راية الحق والإسلام في الهند ترفرف عالية خفاقة ، حتى يئس المسيحيون عن التبشير في الهند(17)

نقدم فيما يلي كلام الإمام النانوتوي في المناظرة بالاختصار:

الإنسان مخلوق :

نعم ! إذا لم يكن الإنسان مخلوقاً لكان من المحتمل أن الحكمة في معنى الغرض إنما تتصل بالشيئ الذي كان قد تم صنعه وخلقه ، وأنه لنا أن نقول : إنما صنع هذا الشيئ لكذا من الغرض ، فأما إذا لم يكن قد صنعه أحد ، ولم يرد أحد صنعه ، ولم يعن به أحد كمثل الرب سبحانه وتعالى ، فلا هناك للغرض ، وإن كان أحد يحتاج إليه في حاجاته . والعجيب أن ذوات بني آدم وصفاتهم أنفسهم تشهد بلسان الحال أنهم مخلوقون . كما ستنحل هذه العقدة عما قريب إن شاء الله . (18)

وحدانية الله تعالى :

أنظروا ! إنه إذا كانت فتحات عديدة تختلف في صورها فإن النور الذي يدخل منها يكون متحداً ، وكذلك تمتاز تلك الصور – صور الفتحات – أيضا عن غيرها فيما بينها وعن النور الداخل منها أيضا ، كما أن النور أيضا يتميز في حد ذاته عن كل صورة من هذه الصور ، أضيفوا إلى ذلك أن كل شيئ في العالم له حقيقة مغايرة عن حقيقة الآخر رغم أن الوجود في نفسه يختلف عن كل حقيقة ، ولذلك فإن الشمس الداخلة من الفتحات كما أن فيها شيئين : النور والصورة ، ولكن النور لا يوجد وحقيقة الخلق ، غير أن الوجود نفسه لا يوجد فيه هذان الشيئان فأنى يمكن أن يسع الموجود الأصلي الذي أفاض الوجود على الخلق جميعا التعدد و الثنوية.

وذلك لأن الحرارة كما أنها لن تصدر عن شيئ حار بذاته ، وعن شيئ حار بالغير ، وأن البرودة لن تشع عن شيئ بارد ذاته وعن بارد بغيره معا. ولذلك فلا يسع المصدر الأصلي للحرارة والبرودة تعددا يعارض وحدة الحرارة والبرودة. وكذلك لن يصدر الوجود عن موجود أصلي وغير أصلي ، فلن يتحقق تعدد في الوجود يخالف الوحدة بالنسبة إلى الموجود الأصلي أيضا. (19)

الدليل الأول على وحدانية الله :

أيها المستمعون ! إن مما يعرفه كل منا جيداً أن حجم وجودنا لا يسع أحدا سواه . أعني بذلك أن المكان الذي يشغله وجودنا لا يسع وجود أحد سوانا ، فإذا كان وجودنا الضعيف لايسمح لأحد بأن يدخل حجمه ومكانه ، فماذا ترى عن الوجود القوي الذي يملكه الموجود الأصلي ، هل يأذن لغيره أن يتسلل إليه ؟ ومن المعلوم أن حيز الوجود لا يساويه حيز البشرية ولا الحيوانية ولا الجسمية ولا الجوهرية. وهذا هو السبب في أنه يجوز لنا أن نقول عن ذلك كله بأنه موجود ، ولكنه لن يجوز أن نعبر عن الموجودات كلها بأنها إنسان ، أم حيوان ، أم جسم ، أم جوهر. وذلك يدل في وضوح على أن حجم الوجود أوسع مكاناً من الأحجام كلها ، وعلى أنه ليس هناك حيز ولا حجم يفوقه ويعلوه ، ويعنى بذلك أنه ليس هناك معنى يتضمن الوجود وغيره كليهما.

فكما يلزم أن نعترف بأن سفينة لا يسع حيزها سفينة أخرى ولا حركة سفينة غيرها كذلك فإن حيز الوجود الأصلي – الذي يشبه السفينة الجارية – وإن حيز العطاء الوجود العالمي – الذي بمنزلة حركة السفينة – لن يسع موجوداً أصلياً آخر.(20)

الدليل الثاني على وحدانية الله :

وعلاوة على ذلك نقول : إذا كان هناك موجودان أصليان فصاعداً لزم أن يتميز كل منهما عن الآخر ، وأن يختلف كل منهما عن غيره ، وبالرغم من ذلك يجب أن يتحدا في الوجود ، وذلك لأن إطلاق كلمة الموجود على كل منهما يشهد بأن الوجود واحد يشترك فيهما. فإنه إذا لم يكن مشتركاً لما جاز أن تطلق كلمة واحدة من جهة معنى واحد عليهما جميعاً.

وإذا كان كذلك فلزم أن تكون الأمور التي يتحقق بها الامتياز مختلفة عن الوجود. فإنه إذا وجد التعدد تعددت الأمور المميزة أيضاً ، ولكن هذا التميز لن يتحقق إلا بأن توجد فيهما أمور ما عدا الوجود المشترك.

ولن يمكن أن يحظى بالوجود أحد منهما وحده ، وذلك لأن الوجود وصف معنى ، والوصف لا يتحقق إلا إذا تحقق الموصوف بذلك. أضف إلى ذلك أنه إذا كان الوجود وحده في جانب تحقق شعاع وعطاء وفيض من نفس

الوجود في جانب أخر ، الأمر الذي يؤكد الوحدة والوحدانية ، وإلا لزم التعدد في الوجود الذي كفاه أن يكون باطلاً أنه يوجد فيهما معنى واحد.(21)

الله ليس له أب ولا ابن ولا أخ :

وإذا ثبت أن الوجود الأصلي هو الله سبحانه وتعالى فمن اللازم أن لا يكون له أب ولا ابن ولا أخ شقيق. فإن ذلك لن يمكن تحققه إلا إذا كان هناك تعدد بالرغم من وجود الاتحاد في النوع ، فلزم أن يشارك الله تعالى في ألوهيته وربوبيته أبوه وابنه وأخوه مثلما يشارك الإنسان أبوه وابنه وأخوه في بشريته مع اختلافهم شخصياً. وقد ثبت آنفاً أن الله تعالى يستحيل التعدد فيه ، فمن البديهي أن يستحيل أن يكون له سبحانه وتعالى أب وأم أو أخ وابن.(22)

الدليل الثاني للرد على البنوة : وأضف إلى ذلك أن الألوهية والاحتياج يتعارضان على طول الخط وعرضه ، فالله عز وجل هو الذي له وجود لذاته ، وبديهي أن من له وجود لذاته يستجمع المحامد كلها ، لأن جميع المحامد كالعلم والقدرة والجمال والجلال وما إلى ذلك تابعة للوجود ، فإن الشيئ المعدوم لا يتصف بالعلم والقدرة ، وهل يمكن – مثلاً – ألا يكون زيد موجوداً ، ويكون عالماً ؟ مما يدل دلالة صارخة على أن الصفات هي تابعة للوجود ، وإلا أمكن توفر الصفات في الموصوف قبل وجوده ، على هذا فيجب الاعتراف بأن الله عز وجل يستجمع المحامد كلها ، ولا يحتاج إلى شيئ ، لأن الاحتياج يعني أن صاحبه ينقصه ما ترغب فيه نفسه ، وهل هناك شيئ سوى الفضيلة والمحمدة ترغب فيه النفس ؟!(23)

الله عز وجل منزه عن كل عيب ،

ومستجمع لصفات الكمال :

وما ذكرته آنفاً ، بينما دل على أن الله عز وجل لايحتاج إلى أحد في شيئ ، إذ دل على أنه منزه عن كل عيب ، فالعيب يعني أن صاحبه تنقصه فضيلة ، ودل – كذلك – على أن الموجودات – سوى الله – كلها تحتاج إلى

الله في كل شيئ ، لأنها إذا احتاجت إلى الله في الوجود ، فاحتياجها إليه في الصفات الأخرى أولى ، لأن كل فضيلة – سوى الوجود – هي صفة تابعة للوجود.(24)

الإنسان المحتاج كل الاحتياج يستحيل أن يكون إلهاً أو ابنه :

لئن كان الإنسان أكثر قابلية للكمال فهو أكثر شيئ احتياجاً كذلك ، فمثلاً : لاحظ أن الأرض لاتحتاج – فيما يبدو – إلى شيئ سوى الله ، وأما النباتات فهي تحتاج إلى الأرض والماء والهواء والشمس. ثم إن الحيوانات تحتاج – بالإضافة إلى ما ذكر – إلى الأكل والشرب والتنفس ، وأما الإنسان فهو يحتاج – علاوة على ما سبق – إلى الملبس ، والمسكن ، والمركب ، والعز والكرامة ، وإلى الزراعة ، والماشية ، والنقود ، والذهب والفضة ، والمعادن ، مما يؤكد أنه محتاج كل الاحتياج ، لذلك فما أكبر الضلال وما أفدح الخطأ أن يعتقد أن فرداً من البشر أله !!

دع هذه الاحتياجات كلها ، وانظر ما به من البول والبراز ، والبزاق والمخاط وما إلى ذلك من الأساخ والأقذار ، ومع هذا فلن يجرؤ أن يعتقد العبد إلهاً إلا من لايمتون إلى الله بصلة ، ولايعرفون قدره ، وا أسفاه !! أرأيتم – أيها النصارى – من يحتاج إلى الأكل والشرب ويغلب بالمقتضيات الطبيعية والقاسرة من البول والبراز هل بينه وبين الله من قاسم مشترك ؟؟ فتعتقدوه إلهاً أو ابنه. (25)

يستحيل أن يكون عيسى عليه السلام إلها أو ابنه :

إن عيسى عليه السلام الذي تعتقدونه – أيها النصارى – إلهاً أو ابنه كان أوفر حظاً من مخايل العبودية ودلائلها منا نحن الناس ، فعلاوة على ما أسلفت من المقتضيات الطبيعية القاسرة من البول والبراز إن زهده وورعه وتقواه وخشيته وطاعته وعبادته التي كان يعيش فيها ليل نهار ، كل ذلك يدل على أنه لم تكن فيه شائبة من الألوهية. إن عيسى عليه السلام كانت تتفجر العبودية من جوانبه ، فلم يكن إلا مقراً بها ، ولم يكن إلا ممارساً لأعمالها ، فإن أخفى عبوديته ، وادعى الألوهية ، كان من الممكن أن يعتقده – بسبب

المعجزات الصادرة عنه – عاقل أو جاهل إلها ، إلا أنه من دواعي الأسف أن الله عز وجل رزقهم – النصارى – العقول والأفهام ، فلايرون في عيسى عليه السلام إلا مخايل العبودية ودلائلها ومع هذا يعتقدون إلهاً ، ولا ينتهون ! ما هذا السكر الذي عطل عقولهم وأفهامهم ؟؟!(26)

عقيدة التثليث والرد عليها :

فما أشد الظلم أنكم توحدون الله الأحد وتثلثونه في وقت واحد ومعاً حقيقة لا مجازاً ، فيقول لكم هذا العبد الأحقر أيها النصارى ! صادراً عن الرحمة بالإنسانية التي تجمع بينه وبينكم : إن مثل هذه المستحيلات في أساسيات الدين تكفي دليلا على فساد ذلك الدين وبطلانه عند أولي الألباب.(27)

إن العقل يشهد على استحالة اجتماع التوحيد والتثليث شهادته على إشراق الشمس ، ومعنى ذلك أن كل واحد من يلاحظ بعينه إشراق الشمس ، كذلك الاستحالة المذكورة واضحة مشرقة عند العقل ، ثم إن الاجتماع المذكور لا يشهد العقل على صحته بطريق مباشر ولا غير مباشر ، وبدليل عقلي : لاقوي ولا ضعيف ، مما يثبت صحة التوحيد والتثليث كليهما ، فإن كانت فقرة من نص الإنجيل تدل على صحتهما تخطأ تلك الفقرة ، ولا تخطأ شهادة العقل.(28)

فقرة التثليث مدسوسة في الإنجيل :

ومن الطريف أن الفقرة الواردة في الإنجيل التي تدل على التثليث هي مدسوسة فيه عند المسيحيين باعتراف علمائهم أنفسهم ، فقد صرح كبار الأساقفة الذين عنوا بطبع الإنجيل في مدينة << ميرزا فور >> عام 1870م ، فقد صرحوا على هامشه بأن هذه الفقرة إضافة جديدة إلى الإنجيل ، لا توجد في نسخه القديمة ، ولكنهم مع ذلك يتعصبون لهذه العقيدة ويعضون عليها بالنواجذ.(29)

خاتمة البحث :

قد نهض الإمام ببناء تاريخ المسلمين الثقافي في الهند ، وأدرك خطر الردة والإلحاد الذي أحاط بهم من كل جانب ، وصمد في وجه هذا الطوفان ، وقام سداً منيعاً أمام هذا السيل الجارف حتى دحض الباطل وانتصر للحق ، وصان المجتمع الإسلامي من خطر محدق به في القرن التاسع عشر الميلادي ، قد فتح الله عليه باباً من العلم واليقين ، وشرح صدره لخدمة العلم والدين في هذه البلاد ، عندما كان الانجليز قد احتلها وأراد أن يحولها من بلاد المسلمين إلى مركز المسيحية والمبشرين ، وقد أكرم الله الإمام بأنواع من الكفاءات والمواهب التي ساعدته كثيراً في أداء دور البطل المغامر في معركة الحق والباطل ، فبرز على مسرح التاريخ الإسلامي في الهند كعالم كبير له يد طولى في الدعوة والجهاد ، ونظرة أوسع في دقائق العلوم ومعارف الكتاب والسنة ، وحكمة بالغة في الجمع بين خيري الدين والدنيا.(30)

والإمام النانوتوي كان يؤم كل قرية أو مدينة يخيم فيها المبشرون لتبليغ دعوتهم ، فيناظر معهم أمام جمع من الناس ويهزمهم بدلائل قوية وحجج لايسع إنكارُها.

واستمر في كسر شوكة المبشرين وقطع أملهم عن نجاح المهمة التي جاءوا بها ، حتى يئسوا عن التبشير في الهند ، ورأوا أن تربة هذه البلاد لاتصلح للبذرة التي بذروها ، وسوف لا تؤتي لهم أكلا.(31)

وبعد الشيخ رحمة الله الكيرانوي شاء الله أن يبقى الإسلام في الهند على كيانه الأصلي مع كل خصائصه ومميزاته ، فظهرت آنذاك جماعة للعلماء المصلحين الذين قاوموا التبشير المسيحي في الهند بكل ما يملكونه من قوة ومواهب وقدرات ، وعلى رأسهم كان الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى ، لقد سجل الشيخ في هذا المجال من روائع الآثار والبطولات ما يُعد أجمل صفحة لتاريخ الإصلاح والتجديد في الهند ، وقد وقعت بينه وبين علماء المسيحية والمبشرين معارك حاسمة وانتهى الأمر في جميعها على نجاح الشيخ الباهر بمشية الله سبحانه وتعالى وأبهض كواهل التبشير المسيحي ، ولم ترفع المسيحية في الهند بعد ذلك مثلما كانت قبل مجهودات الشيخ الإمام ، نحن نسلم أن المسيحية والتبشير المسيحي كلاهما موجودان في الهند الآن ولكن من البديهي أنهما أصيبا بشيئ كبير من الضعف والانحطاط ، والحق أن للعاملين في هذا المجال دلالات وتوجيهات في سيرة الإمام ، ومسلمو

الهند بل مسلمو آسيا كلها لن يزالوا مدينين للإمام النانوتوي في بقاء الهوية الإسلامية والحضارة الإسلامية ، ومآثره صارخة بأعلى صوتها على قيمتها ومكانتها وإن لا نصغي إليها لغفلتنا وسباتنا.

إن الشمعة التي أضاءها الشيخ في الهند لاتزال تنير السالكين طريقهم ، وتضيئ للطالبين غايتهم وهي لاتزال تقاوم العواصف الهوجاء وتبارز الأعاصير الظلماء على مر الأيام والعصور.

توفي هذا الإمام المؤيد المسدد المتبحر النحرير خريت المناظرة والكلام ، والعالم الكبير المجاهد العظيم المحدث الفقيه المتكلم بديوبند بعد صلوة الظهر ٤/جمادى الأولى/١٢٩٧هـ الموافق لـ١٥/ابريل/١٨٨٠م عن عمر يناهز الـ٤٩ عاما بعد حياة حافلة بالكفاح والتضحيات ، وأعمال جليلة تذكارية وروائع البطولات ، وصلى عليه جمع حاشد من الناس ، ودفن بقطعة أرض عرفت بالمقبرة القاسمية ، وهي تقع في الشمال الغربي للجامعة .(32)

ولله الحمد أولاً وآخراً وصلى الله على نبيه المختار صلى الله عليه وسلم.

الهوامش :

1 : الكيلاني- مناظر أحسن ، سوانح قاسمي ، (ط : مكتبة دارالعلوم ديوبند ، بلا عام) : 1/146

2 : المرجع السابق : 1/227-230

3 : المرجع السابق : 1/153-160

4 : الكاندهلوي- نور الحسن راشد ، سيرة الإمام النانوتوي ، (ط : مكتبة النور ، بمدينة كاندهلة الهند ، 2000 م) : 178

5 : الكيلاني- مناظر أحسن ، سوانح قاسمي : 2/281-294

6 : الكاندهلوي- سيرة الإمام النانوتوي : 726-772

7 : الرضوي- السيد محبوب ، تاريخ دار العلوم ديوبند ، (ط : مكتبة دار العلوم ديوبند ، بلا عام) : 1/149

8 : المرجع السابق : 1/464-476

9 : الكيلاني - سوانح قاسمي : 2/111،135

10 : المرجع السابق : 2/1- 77

11 : الصابري - إمداد ، حبائل الافرنجيين ، (ط : مطبعة إمداد الصابري ، 1949 م) : 10-30

12 : السيد طفيل أحمد ، المستقبل الزاهر للمسلمين ، (ط : المطبعة النظامية بدايون ، 1943 م) : 143

13 : السيد طفيل أحمد ، المستقبل الزاهر للمسلمين ، (ط : المطبعة النظامية بدايون ، 1943 م) : 136

14 : المرجع السابق : 55

15 : المرجع السابق : 60

16 : للاستزادة راجع سوانح قاسمي للكيلاني : 2/338

17 : المرجع السابق : 2/364-415

18 : النانوتوي قاسم ، حجة الإسلام ، (ط : أكادمية شيخ الهند ديوبند ، 2007 م) :45-46

19 : المرجع السابق : 55-56

20 : المرجع السابق : 57-58

21 : المرجع السابق : 58-59

22 : المرجع السابق : 61-62

23 : المرجع السابق : 64-65

24 : المرجع السابق : 65

25 : المرجع السابق : 66-67

26 : المرجع السابق : 68-69

27 : المرجع السابق : 69

28 : المرجع السابق : 70

29 : المرجع السابق : 72

30 : مجلة البعث الإسلامي ، ندوة العلماء لكناؤ ، (رجب/ 1385 هـ) : 71

31 : المرجع السابق : 74

32 : الرضوي- السيد محبوب ، تاريخ دار العلوم ديوبند : 190/1

المراجع والمصادر:

1 : الكيلاني- مناظر أحسن ، سوانح قاسمي ، (ط : مكتبة دارالعلوم ديوبند ، بلا عام)

2 : الكاندهلوي- نور الحسن راشد ، سيرة الإمام النانوتوي ، (ط : مكتبة النور ، بمدينة كاندهلة الهند ، 2000 م)

3 : السيد طفيل أحمد ، المستقبل الزاهر للمسلمين ، (ط : المطبعة النظامية بدايون ، 1943 م)

4 : السيد طفيل أحمد ، حكومة الاستقلال ، (ط : المطبعة النظامية بدايون ، 1940 م)

5 : الصابري إمداد ، حبائل الافرنجيين ، (ط : مطبعة إمداد الصابري ، 1949 م)

6 : الرضوي– السيد محبوب ، تاريخ دار العلوم ديوبند ، (ط : مكتبة دار العلوم ديوبند ، بلا عام)

7 : النانوتوي قاسم ، حجة الإسلام ، (ط : أكادمية شيخ الهند ديوبند ، 2007 م)

8 : مجلة البعث الإسلامي (الشهرية)، ندوة العلماء لكناؤ (الهند) ، (رجب/ 1385 ه)